

مزجَ الشعرَ بروحَ الشَّعْبِ حتى رَدَدَهُ
في صَدَحاتِ سامِيا تَفي القلوبُ مَحَلَّةً

« . »

إن شوقِي في صَدُورٍ قد وَعَتِ آثَارَهُ
إنْ يَكُنْ في حَفرةٍ فلنا منها مَنارَهُ ١

« . »

فليس بدعاً أن تَرى حالمَ الشرقِ حَزِينُ
وليس بدعاً إنْ مَضَى شاعرُ الوحيِ الأَمِينُ
كلُّنا تَفنى ويَبقى الأَثَرُ ١

مُحَمَّدُ أَبُو الفَضْلِ البَغْدَادِيُّ

~~*



الخير والشر

الكونُ ظَرَفٌ لا ضِدَادَ مَقْدَرِهِ
لا اَخيرُ يُخْرِجُ مِن دُنْيَا تَحِيطُ بِنَا
طَوْعاً وَكَرْها تُؤَافِقُنَا فَتُوفِئُهَا
جَارُ يَنُوحٍ وَجَارُ ضاحِكٍ وَغَدَا
ولا نَرى الشرَّ يَنبُو عَن حَفَافِئِهَا
فَالعَكْسُ، حَتَّى تَسَاوِي كُلَّ مَنْ فِيهَا

لا توغرناك أثوابه مقصرة^١ لعلك الغد تمشى في ضوافيها
ولا تغرناك نعمي لست تكفلها فانهز^٢ لدى اليسر شيئاً من بواقها

الصحب

وأحصيت^٣ صحبي في سجل مودني سنين يساري كل من جد أثبت^٤
ويوم عشار الجد أدرك نهضتي ولا أحداً ألقاه إذ أتلقت^٥
ففتحت^٦ سجلي ماحياً كل صاحب تنكر لي أوبات في الضيم يشمت^٧
فلم يبق غير الجلدين وأسطر^٨ ضربت عليها اضل^٩ ما كنت أنعت^{١٠}

الصبر

إصبر^{١١} كما ترجو إذا لم نجد من حيلة^{١٢} عجلى لنيل الأرب^{١٣}
لو لم يكن صبري على حصرم^{١٤} ما اذوق^{١٥} الإنسان بنت العنب^{١٦}

المال والخمر والشيطان

المال^{١٧} في جيبي ولا غرة^{١٨} والخمر في رأسي وأمرى عجيب^{١٩}
يدفعني الشيطان^{٢٠} نحو الهوى فاحتسب^{٢١} في أن^{٢٢} ربي رقيب^{٢٣}

الشيب

جزى الله عني الشيب^{٢٤} خيراً فإنه أهاب^{٢٥} بنفسي أن تكف^{٢٦} هناها^{٢٧}
فيا ليت شيبى كان في مله^{٢٨} صحتي وأن^{٢٩} شبابي كان حين فقدتها^{٣٠}

اسماعيل سري الرهشانه



الرومانيسم

في الأدب الفرنسي

القرن الثامن عشر والأدب

كان القرن الثامن عشر قرنًا هامًا طافراً : نقد المعتقدات ، وأنكر الامتيازات ، ونقم على الحكم المطلق ، وسخر من التقاليد القديمة ، ونقّص أمسّ الاجتماع وناقش أصول الدين . آمنَ أبناءُه بِبكرة الرُّقَى البشرى خطموا كلَّ مانع يصدُّهم عن الوصول إلى هذا الرُّقَى ، وكسروا كلَّ عائق يحول بينهم وبين تلك الغاية .

وإذا قلنا القرن الثامن عشر فكاننا قلنا فولتير - ذلك أن فولتير ملأ هذا القرن بشهرته واسمه وشغل الناس بأفكاره وأفكاره ؛ وسَيطر على عُقُول معاصريه سيطرة الملك الجبار . فكانت سِعة هذا القرن الظَّاهرة هي غلبة العقل وتسلُّطه على مناحي الحياة وعلى اتجاه الآداب والفنون .

وإذا كان مسلماً أن عماد الآداب الخيال والعاطفة فن النبى أن لا تنهض هاته الآداب نهضة ممتازة في عصر العقل والمنطق ؛ وهذا هو سبب فقر الآداب الفرنسية في أزهى عصور الفلسفة ، وتلك هي علة ركودها في أحفل عصور الفكر والتفكير . . .

كان الأدب في القرن الثامن عشر ضئيلاً هزيلًا لأنه كان يعتمد على العقل المجرد ، وكان راكداً جامداً لأنه أحيط بقواعد آليّة وقيد بقيود وراثية أبقته على حالة عبودية ، فقد آل الشعر في ذلك الزمن إلى مباحث نظرية وموضوعات فلسفية ليس وراءها إلا التفعيم ، التّضخيم والتكثف والتعصف ، فإن نظموا في الغزل فبذاك الأسلوب الخليع الرفيع وبذلك الاحساس الغائر والشعور السطحي ، وإن وصفوا الطبيعة فلكى يعددوا أنواع الرياحين ويستقصوا أصناف الشجر . أما خلق الصُّور الشعرية ورسم المنظر الطبيعي والتعبير عن الاحساس به وما يولد من العواطف في النفس فذلك مالا أثر له في ذلك الأدب الجامد .

ولعلّ الصالونات الأدبية الشائعة في ذلك العصر كانت أهمّ عائق يعوق الأدب عن التطور والتبديل .

فالمصالحات لا تقوم إلا على التقاليد ولا نجح إلا بالأوضاع وقد حرمت هاته التقاليد على زوار المصالحات كل حرية فردية وازدردت بكل محاولة يقدم فيها الشاعر بالتحدث عن ذاته ووصف انفعالاته وتأثراته فكانت القاعدة النافذة هي عدم الخروج عن المؤلف وما يدخل تحت قول شاعرنا العربي .

« قد قلّتها ليقال من ذا قالها »

وكم أضاعت المصالحات بسلطانها على حركة الأدب وتمييده بثلث القيود الثقيلة من عبقرية ناشئة وقريحة حية وثابة حاولت أن تؤدّي مشاعر نفوسها ومدرجات عقولها فقضت عليها تلك الأوضاع والتقاليد وفشت في عزائمها فسقطت في هوة النسيان أو أدرجت في كفن الخمول .

وهناك عائق آخر قعد بالأدب وقتل فيه كل رُوح ونعني به قاعدة الذوق ، والذوق هو هاته القوانين الموروثة عن خول القرن السالف والقوالب التي جعلت للتعبير عن المعاني بأساليب قياسية وطرق تقليدية كل نمط من أنماط الأدب يدرج في أساوبه الخاص وطريقته المرسومة . وهاته القوانين تنكر كل حساسة وتخرجها من جملة الأدب ولا تتناول العاطفة أو الميول القلبية إلا كموضوعات للدّرس والتحليل — والويل كل الويل لمن يتنكب عن تلك الطرق المألوفة ولا يتبع هاتيك الخطّة المعروفة .

وكانت اللغة في القرن الثامن عشر صورة مصغرة من الماوكية فن الألفاظ النبيل والشريف والعامي والسخيف ومن الكلمات ما لا يستعمل إلا في الأغراض الشريفة والموضوعات النبيلة ومنها ما يمكن ألا يكون الخواص والخرائب ويمش في المجون ويلبس الأظمار البالية ويمشي في الأسواق .

ومن مميزات أدب ذلك العصر فشوء الصناعة فشوء كبير لا ثلث تلك القرائم الكلية لما أعوزتها ملكة الخيال الخصب والعاطفة الحارة والاحساس الدافق لجأت إلى الاستعارة والكناية والتشبيه استر عجّزها وتوارى فاقها ولذلك شاع استعمال الكنيات البعيدة حتى أقيمت مكان الاسم خصوصاً إذا كان هذا الاسم لا يتفق ولغة الأرسوقراطية كالبيض والدجاج مثلاً فلم تعد الكتابة لتقريب الصورة إلى غيّلة القارئ أو لتقوية التعبير وإنما صارت ضرباً من الألفاظ يقدمه الشاعر إلى الحل بذكر أوصاف الاسم ومميزاته فإذا عرفت الاسم فقد حلّلت اللغز .

ومن الطبيعي جداً أن تكون اللغة جافة عاجزة عن أداء الانفعالات النفسية خالية من الصور الشعرية لأنها لغة العقل المجرد والتحليل الفلسفي والأدلة المنطقية وليست هي لغة الخيال الجامح والإحساس المرهف والعاطفة المشوبة .

فالمعقبة في سبيل تطوّر الأدب وانبعثت روح الحياة فيه هي هاته الآفات ولن يَقَع هذا البعث والتطوّر إلاَّ بالتَّعْفِيفِ على تلك الأندية الزلرفية السَّردانة وبالثورة على القواعد الوارثية وبقلب اللغة رأساً على عَقِب .

مبرة رسامة

في أواخر القرن الثامن عشر ظهرت في الآداب وفي الحياة الفكرية النوادي ظاهرة قوية هي « بقطة الاحساس » ولم تكن قبل ذلك إلاَّ بقطة فكرية محضة وقد كثر استعمال كلمة *Sensible* في كتابات ذلك العصر ولا تكاد تخلو منها صفحة وقد شوهده في أشخاص الروايات والقصص تغيير محسوس فبعد أن كان يَغْلِبُ على صفات أولئك الأشخاص الجزمُ والنشاط العملي وتصدر أفعالهم عن تفكير وتعقل صارت تغلب عليهم رقة الشعور وغزارة العواطف والاحتلام إلى الاحلام والمشي مع الخيال . وقصة « هلبوز الجديدة » لروسو قصة حب نشأ وترعرع بين العواطف الشعرية والاندفاعات القلبية ، وقيل مثل ذلك في رواية « بول وفرجينى » فكان الاندفاع وراء الشهوات ، والجري خلف اللذات وجعل الحب مادياً والغزل خليعاً ماجناً قد بعث السامة في النفوس وأوجد فيها فتوراً قاتلاً فشحروا بكل مميت واشتمزاز بالغ من تلك الحياة التي أشعلت بها قلوبهم تلك الغلعة العارمة وكان الاستمرار على الاندفاع في تيار الحركة المغلية قد قتل الأندية وعمرها بالسامة والملل لأن تلك المناقشات الفلسفية والحوار المنطقي كانت تخدم بظاهرها البراق ولكنها لا تترك في النفس إلا أثرآ من آثار الاحساس بالفراغ وقلة الجدوى إذ ليس لها غرض ترمي إليه أو غاية تروم الوصول إليها ومن هنا نشأ المرض الذي غمر النفوس بالسامة ونشر الحيرة على الأفكار - فكان كل نفس تساءل : أين المستقر ؟ وما دواء هذا الجلود والركود ؟ وقد بحثوا عن ذلك الدواء فوجدوه - الدواء هو أن ينير حياة الذكاء والعقل واللذة الحسية قس من حرارة القلب - فليست المعادة في طلب المعرفة من طريق العاطفة وليست لذة الحياة في أن تفكر وتحلل وتقيس

وتدل بل هي في أن نخباً شاعراً بحركات قلبك حاماً ما فيه من ثورة وسكون وقسوة
ولين، منتخياً بما تنيره الأشواق القلبية من مرارة لذة وعذاب عذب، مقتبطاً بتلك
الكتابة المظلمة، مستملاً لداعى اليأس الذى يشعره براحة العدم.

وهكذا انجبت هاته النوادى الذككية المفكرة الى الكتابة التى لا سبب لها
والآمال التى لا تحد والاحاسامات الغامضة والأشواق المجهولة. فكانت هاته الحالة
الفكرية الطارئة نهياً ظاهراً لعصر جديد يعتمد فى الأدب على أصول ونظريات
لا تمت الى الماضى بصلة أو سبيل.

الرواية

إن جملنا روسو أول رائد للمذهب الرومانتيكى فما ذلك إلا لأن الرومانتيسم
في جلته وتفصيله هو الأدب الغنائى، وروح الأدب الغنائى هو التحدث عن النفس وما
يعرض لها من العواطف والأفئال ويمتورها من الآلام والآمل أو هو تغلب
« الذاتية » ورجوع كل المطالب إلى ذات الانسان. وروسو هو أول من أدخل
« الذاتية » في عصر الفلسفة والعقل والتحليل والتحليل وقد أخذ مادة كتبه لا من
البحث والاستنتاج بل من ذاته القريبة اليه، ونفسه التى بين جنبيه. وانه ليسهل
على الباحث أن يستخلص من آثاره نظريات خالدة فى الأدب الغنائى وقصة « هلويز
الجديدة » التى سبقت الاشارة اليها هي قصة العواطف والقلب والشعر والحب
والذكريات والحسرات. واعترافاته نفيد شعري حصة الخيال فيها أكثر من حصة
الواقع.

فصدر تلك الحساسة التى شملت تلك الفترة من الزمن إنما هو جان جاك روسو -
وقد جاء حين كانت الحاجة اليه، جاء حين سمع الناس من تغلب العقل وتسلط الذكاء
وجود العقول لكثرة ما يلفت من المعقول فأحوا بانبعاث قلوبهم لما لمسوا قلبه
واتصلوا بروحه وعلموا أن المسرة هي التى تأتى من ناحية القلب لا من طريق العقل
الذى عجز عن إعطائهم تلك المسرة.

وروسو هو الذى رد أبناء عصره الى الطبيعة لانه كان مفتوناً بها هائماً بحجرها
شديد الإدراك لحاسنها، دقيق الاحساس بمواضع فنتها، وقد جعل لها مكاناً
فسبحاً فى كتبه وخلد على القرطاس مشاهد ومناظر من جمالها لا تقل روعة عن صور

أمهر الفنانين وكم وصف في آثاره لأبناء جيله من شمس مشرقة وأسميات جميلة وليلى صاحبة وسروج خضراء ورياض غناء وغابات مليحة بالأسرار صميقة الأثغوار ؟ وكم أشركهم في فرحة العين ومتمعة الأذن التي يرونها رؤية النور وجمال الزهور ويطربها حفيف الأوراق وخزير المياه وشدو الطيور وهومات السيم ؟

والخلاصة أننا نجد روسو في كل منعطف من منعطفات العصر المقبل ، وله يرجع الفضل في تغليب « الذاتية » على النزعة الفكرية وفي إرجاع الجيل إلى الطبيعة الحية النابضة القلب وفي ترفيه الإحساس وإضراره الأميال القلبية وبعث الحياة الروحية التي تدرك أمرار الجلال وتخلق روح الفن وتجعل من الطبيعة هيكل عبادة وتطهير

أما الرائد الثاني للمذهب الرومانتيكي فهو « شاتوبريان » وقد يكون من العدل أن نجعله أكثر من رائد لأن أياديه على المدرسة الجديدة تجعله شديد القرابة بزعمائها عظيم الفضل على جلة أدبائها . وهو يتفق مع روسو في أن كلاً منها أشاد بميزة أشواق القلب وكلف الحب وأظهر ما فيه من مادة ثرية للفن لكن روسو كان يتناول هاته الأشواق بصفة عامة ويصف شدة أصرها للقلوب وطفانها على المشاعر واقتيادها للنفس . أما شاتوبريان فالأشواق القلبية تتشكل معه بشكل آخر وتمتاز بميزة قوية : فبينما بطل روسو يقتنع من حبيبته بالحب وينتظر منها إسعاده أو اشقاءه نرى بطل شاتوبريان يضع قلبه فوق الحب أو فوق ما يكلفه ويرى كل مسكرة من مسكراته عاجزة عن إرضائه وهو كئيب لأنه يرى أحلامه أكبر من الواقع المحدود وهو معذب لأنه يتصور مثلاً أعلى ويعرف سلفاً أنه عاجز عن الوصول إليه كما يعرف أنه لا يستطيع الكف عن طلبه .

وقصة (رُني) هي اعترافات شاب اندفع في نيار الأشواق المجهولة لأنه

سم الواقع واستولت عليه الكآبة وتغلغلت في أعماق نفسه فلم يعد يشعر بوجوده إلا من ناحية شعوره بالسآمة ونراه يحاول التخلص من دائه في قلة اكترات فلا يجد من دواء لذلك الجرح الغريب الذي يحمله في قلبه . . .

وقد قال شاتوبريان في مقدمة (رُني) أنه اكتشف هاته الحالة النفسية التي لم يتفطن إليها القدماء ولم يكتب فيها المحدثون وأكد أنها حالة تسبق عصور التطور وتبشر بمجيء عصر الأشواق الكبيرة وذلك حين تكون ملكات الشبان ملكات ناشطة وقرائحهم طامحة بالحياة ولكنهما أزال مكبوحه منكشة ، ولا هي مصروفة

إلى عمل معين وغاية مرسومة . وهاته الحالة تشمل ثلاثة أطوار ، فالأول : هو المهمة البالغة إلى حد الهوس في صرف جميع القوى التي يشر صاحبها بأنها عاطلة مشدودة ، والثاني ، الشعور بالعقبات التي تحول دون الوصول إلى تلك الرغبات العظيمة ، والثالث : الاعتقاد بأنه لو تحققت تلك الأحلام وصارت واقعة لما أرضت القلب أو أعطته طلبته لأنه وهو يرغب في الشيء يعلم أن لا شيء يستحق الرغبة — ومن هنا كان ذلك القنوط المنسجم وتلك السكابة المتربعة التي تأثر بها الجيل الناشئ كله وتأصلت عروقها فيه — وإليك هاته الصيحة من (سانت بيغ) : « أى رثى نحن أبناءك حقاً فطفولتنا كانت مبللة بأحلامك وكهولتنا مهبجة من بلابلك ولا تزال ريمحك هي التي تحركنا »

ومن أيادي شاتوبريان على المدرسة الحديثة أنه أدخل في كتاباته تلك الصرخات والمبجات والجلل المعترضة التي تعبر عن هزأت النفوس وحركاتها في حالة الدُّعاء أو الشكوى أو التذكر والتي جارية فيها الرومانتيكيون خجاءت عجباً من العجب وهو الذي جدّد الصُّور الشعرية بما وصف من مناظر الطبيعة ومشاهد البلاد الأجنبية وأدخل الاحساسات الحارّة بعد أن عني عليها المدرسيون بأساليبهم الباردة التي تعودت أداء المعاني المتشابهة بأساليب متشابهة .

وأما مدام ده ستايل فهي أول من تكلم على الرومانتيسم في كتابها « De L'Allemagne » وقالت بضرورة الاقتداء بأدب الألمان الناشئ الفتى .

قالت : إن من المفيد للفرنسيين أن يتعلموا من الألمان عوض أن يفرضوا على الناس الإعجاب بعقرياتهم وليس المقصود بالتعلم هو مجرّد النقل والتقليد — والفرنسيون في هاته الآونة يزدادون كل يوم فقراً لأنّ ميزات أدبهم عني عليها فنول مكثهم على ما ألفوا فهي كالدرهم الذي أمّحت كتابته لكثرة ما مر على الأيدي وقد بان عجز التقاليد المدرسية عن إروائهم بعصارة جديدة . فلماذا لا يطلبون من شعب ناشئ قوى سرّاً إحياء خيالهم وبعث احساسهم وتجديد آدابهم فتحيا نفوسهم بحياتها وتتجدد بتجديدها « ثم تكلمت عن أدب الألمان وقسمته إلى قسمين : أدب سكان الشمال ، وأدب سكان الجنوب . وتحدثت عن نوع جديد من أدب الشماليين تجمعهم كلمة « رومانتيسم » .

ثم قالت : « وكلمة الرومانتيسم كلمة دخلت منذ عهد قريب إلى ألمانيا لينعت بها الشعر الذي تولد من مطوحات الفروسية وعقائد الديانة المسيحية »

ثم قالت : « ان أدب القُدَامى أدب غريب عند المحدثين لا يمت لهم بسبب وأما الأُدب الرُّومانيكى فهو عندنا فى داره وبين أهله وهو الأُدب الذى يمكنه أن يبلغ الكمال على أيدينا إذ كانت أصوله ثابتة فى أرضنا ولأن ديانتنا ومؤسساتنا هى التى غرسته وهو وحده الذى يعبر عن عقائدنا ويتناول تاريخنا (أى القرون الوسطى) وبصور انتعالاتنا الشخصية لجرك منا ويؤثر على نفوسنا »

وهكذا نصحت مدام ده سنابل لمواطنيها بأن يدرسوا أدب الألمان لينتهوا منه الى أدب هو فى آن واحد جديد فى موضوعه ، أروبيٌّ فى انتشاره وشموله ، قومىٌّ فى منبته وأصوله

محمد الحلبوى

(نونس)

شعر التصوف

للتصوف فلسفة بعيدة الخيال ، وله أساليب لا يأتيتها الجديد وإن كانت غير محدودة المعنى ، وللتصوف فى الاسلام حالات ، موروثة ذات ، طابع خاص يمتاز بكثرة معنياته وإحالاته على الغيب ، ويمتاز كذلك بملائفة من الاصطلاحات التى لا يستطيع بها تقرير غرض أو تحديد وصف فضلاً عن إرادة معنى مجزوء ، وما عليك إذ تصادفك أو تسمى اليها الا أن تجاوز ما لا تستطيع إدراكه الى ما تستطيع فان لم تفهم - وما إخالك - فعليك التسليم اذا لم يطاوعك اليقين .

هذا من مبادئ الصوفية وأما كتبها فكما يقولون شعورٌ روحىٌّ بمحقائق الوجود . وفى سبيل تلك الحقائق تكثر الإحالات على المجهول والمستحيل ، وتعود الحجة الى النقل والتقليد فيما لا يرويه أو يقرره لا كتابٌ ولا سنة .

فكرة مثبكة وغيوبة مبهمه يقولون إنها تسير فيما وراء العقل ومن هنا تحتاج الى ذوق خاص قد لا يأتى الكثيرين . وما ظننته وأتى أحدا الا فى أستار الخيال .

تلك مقدمةٌ وجيزة أردت بها التصوير لا النقد أسلك بعدها سبيل إلى شعر التصوف . فالتصوف خيال هبط جُثَّةً إلى الشعر وللتصوفة ولعٌ شديد بالوزن والقافية حتى أن أحدهم ليرى فى قدرته على نظمها دليلاً على صفاء روحه واستعدادها

لخرق الحجب . ومن ثم كثرت المحاولات وكثر المنظوم . وكان أكثر تلك المنظومات ذيوها بين رجال الصوفية أقدمها وما رويت عن البارزين منهم . فهي بمثابة حقائق تقضى قواعد الصوفية كما قدمنا بالتسليم بها وإن لم تكف في ذاتها للدلالة على شيء . في هذا الجو الخالي من النقد بل الملىء بالتسليم وتوهم الشعور بما لا يقع تحت الشعور وبين طوائف متباينة الأغراض عامتهم لا يدركون من ظواهر الأشياء وسنن الحياة وشرائط الدين وتعاليمه شيئا . وبعض خاصتهم أناس مؤمنون رغبوا في مثل عليا لحياة الروح فهم يعملون لها بأضعاف الجسم وإهمال رغبات الإنسان وبتقوية أرواحهم بتلك الرياضة وبالسهر والعبادة والوحدة ، والبعض الآخر من الخاصة متورطون أو خادعون فهم لا يفهمون شيئا من هذا ولا تقوى عزائمهم إلا ظاهراً على احتمال عذاب المجاهدة . والخاصة من هؤلاء وهؤلاء حظهم من الثقافة الناحية الدينية من حيث يسودها الوهم أو يتحكم فيها الغرور أو حب التنفير .

في هذا الجو يأتي شعر التصوف فيملاً تصانيف كثيرة ويتداخل فيما بين الكلام للتدليل والقطع . وهو وإن قلت فيه الأجادة لا يمكن إلاّ اعتباره ناحية خاصة من النواحي التي أجمع إليها الشعر العربي . وتكاد تنحصر أغراض هذا الشعر فيما يأتي :

(١) الوصف وغالبه في صورة المدح بناءً على الذات العلمية الآتية أو في النبي صلى الله عليه وسلم وفي سيرته وأعماله ، أو في غيره . وبغالب على هذا النوع أن يبدأ بفزل غثٍ غير مقصود لذاته ، ولذلك يظهر عليه التكلف كما ينقص تصويره الذوق الغربي الحساس . وطائفة من المدائح والوصف مفرغة من أولها لآخرها في صورة غزلية سقيمة غامضة وبها يتغنى المتصوفة في خلواتهم . ومن الوصف والمدح ما هو مقبول الفكرة والأسلوب كهمزية البوصيري وبعض منظومات ابن الفارض ومنه مالا قيمة ولا أثر له . ويدخل في باب الوصف والمدح نظم ينسبونه إلى العارفين منهم بحقائق عن الروح وعن عوالم أخرى وبأسرار باطنية لا سبيل إلى الإيضاح عنها إلا بنفس النظم المشير إليها .

وهذه الناحية منزوية حقاً عن عالم البحث في الأدب العربي وهي بعد جذيرة بالدرس والمقابلة بنظائرها من الآداب الأخرى فبعضها جدٌ شبيه بليلالي «دى موسيه» و«عقطوعات» طاغور ، وهي وإن برزت تلك في الإيهام والغموض فإنها لا تجاريها في العظمة الفنية .

وما يأتى من المختارات التى تتمتعى النظر فى هذا الباب :

١ . من قصيدة فى « الحقيقة الاحمدية » الخطاب فيها للنبي صلى الله عليه وسلم :

يا مجتلى الحقّ صرّفاً لا يشاركه	فى الله وهمّ ولا رسم ولا ظلّ
يا جامعا للسوى بيناه منفرداً	بالله ما راعه فى ربّه شكل
يا من تحمّل مجلى الذات مُنفِرةً	والكلّ دون احتمال الوصف قد كلّوا
يا طلعة الحقّ فى ذاتٍ وفى صفّةٍ	الكلّ مدنّره فيها ومُنحلّ
الخلق والأمر فى مبنك مرتبةٌ	لكنّ معنك رمزٌ ماله حلّ
يا كنز نور الخفا فى عين وحدته	يا غيث حقّ على الأكوام منهلّ
تغدو فيافى الدجى من وكف راحته	غياض أنس بماء الله نخملّ
يا روح معنى صفاء الكُنه يا حرّم	على وصيد سناء يسجد العقل
يا ناشر العلم من أخفى حقيقته	بالعلم يا حرم التحقيق يا حلّ
ما لاح فيه سوى حقّ وأنت له	محراب قوس وفيه الكل قد صلوا
حسب الجميع سنك الحقّ مرحة	يا من تحقق بالحقّين يا وصل

ب . من قصيدة أخرى فى نفس المعنى ونفس الخطاب :

يا أول الحُجُب العاليا يحجبها	وجه الظهور وصر المر مسترّ
يا طلعة الحقّ يا مجلى القديم وبأ	كنز البداية يا عين وبأ غير
أنت اهُوِيَّةٌ فالآثار قد ظهرت	فى عين ذاك والأعيان تنفطر

ومنها :

هذا الذى حَجَبَتْ أنواره حُجُباً	لولاهد كَتَّ ودُّك العين والأنثى
هذا الذى حمل المجلى القديم بلا	مِثْرٍ ومن وصفه الآثار تنفطر
هذا الذى حمل الاسماء من قديم	والكون من بعض ذاك السر ينفطر

وهناك ما هو أكثر اغراقاً فى الإيهام ولكنه دون ما أوردت أسلوباً وقبولاً
وفيما سبق من هذا ما يكفى ولننقل إلى أغراض أخرى .

(٢) التعاليم الصوفية وآداب السلوك فيها وفي ذلك من النظم الكثير في الدعوة إلى سلوك طرق الصوفية والالتزام بأوامر رجالها وتحليم القياد لهم، ونزع الإرادة، واعتزال الناس، والخلوة، واعتقاد كل ما يقال أو يروى عن العارفين مما لا حدود له ولا ضبط لروايته وتأويل ما ينهم على الفهم أو يتعارض مع المسأوف أو الشرع من أحوال المتصوفة .

وما يأتي مثل لذلك في التعريف بآداب المريد مع شيخه :

أخلص ودائك صدقا في محبته	والزم ثرى بابيه واعكف بناديه
وأحذر بمجهدك أن تأتي ولو خطأ	ملا نحب وباعد من نواهيه
وكن محباً محبته وناصرهم	والزم عداوة من أضحى بعباده
واترك مرادك واحتلم له أبداً	وكن كثير رميم في أباديه
ومن إمارة هذا أن تؤوّل ما	عليك أنشكل اظهاراً لخافيه
ومثل آخر من آداب السلوك :	

ومن لم يكن سلب الإرادة وصفه	فلا يطعمن في شم رائحة الفقر
ومن يعتبرض والعلم عنه بمزل	ير النقص في عين الكمال ولا يدرى
ومن لم يوافق شيخه في اعتقاده	
فذو العقل لا يرضى سواه وإن نأى	عن الحق نأى الليل عن واضح الفجر

وأمر بهذه الآداب دون مناقشة لأننى أقصد إلى نقد الشعر لا إلى نقدها ومن الأغراض .

(٣) المهجاء وعريب أن يكون المهجاء من أغراض شعر التصوف الذى تدل البدهة على انصرافه عنه . ولكن المتصوفة ينظمون في المنكرين عليهم أو فيمن ينقدهم أو يتعرض لهم أقذع المهجاء ويعتبرون ذلك قربة لله وتوفيقاً منه . وهذا الضرب من الشعر لا روعة له ولا فن فيه .

وقد تكون هناك أغراض أخرى ولكنها ثانوية القيمة .

والآن نستعرض شعر التصوف لنرى حظه من الموسيقى والمعنى واللفظ . فاما

أسلوبه وللفاظه فيمكن إلحاقه فيها بالنوع (الكلاسيكي) من الشعر العربي لأن
يأظميه مقلدون غير منشئين ولأنها تكاد تتخذ نوباً واحداً تقليدياً في المدح والوصف
وهما من أهم أغراض هذا الشعر .

وأما عن المعنى فهو قريب المأخذ في بعض الحالات بعيد التصور في الأخرى
يغلب فيه التفكير ويكاد 'يأمر' عدم القصد لما تدل عليه بعض الألفاظ من معاني
لما تفيد تلك المعاني من شطط ولغو فالألفاظ تتحكم في أكثر ما نظم من شعر
الصوفية وإذا راجعنا ثقافة المتصوفة العامة وفضولهم على الشعر أمكننا أن نقدر أن
التصوف على حاله غير دقيق . وأنه يقصر عن التعبير عن المعاني الجليلة والآداب
السامية التي لا شك أن التصوف لا يخلو منها وإن كنا لا نرى تصويرها فيما نرى أو
نقرأ بل على النقيض نرى آداباً بعضها مما لا يليق بالعقل أن يقبله .

وأما موسيقينه فهي مما يهتز له المتأثر بمبادئ التصوف وآدابه والذي لم يتهيأ
له أن يزن الشعر في فنونه وأغراضه أوحى أن يسمعه . وليست مما تسهل إساغته
للسامع المتعمق .

هذه نظرة سريعة لشعر التصوف أرجو أن أكون قد نبهت بها إليه ؟

محمد فريد عبد القادر

